

الباب السادس

ديكنز وكتابات

في ربيع عام ١٨٤١ فكر ديكنز في القيام برحلة الى امريكا وقد حاول المؤرخون الاهتداء للسبب الذي دعا المؤلف القيام بهذه المهمة فتعددت الشائعات. ولكن السبب الرئيسي كان رغبة المؤلف في زيارة عالم جديد محرر من تقاليد الملكية وتباين الطبقات . سافر ديكنز تاركاً أولاده في رعاية صديق له بعد أن اتفق مع شامان وهول على أن يكتب لهما كتاباً يصف فيه رحلته إلى أمريكا . وبعد رحلة شاقة لم يكن يتوقعها وصل ديكنز إلى هاليفاكس حيث قوبل بترحاب عظيم وقد سر للاستقبال الرائع فكتب لفورستر يقول : اننى أتمنى لو كنت ترى الجماهير وهى تهتف فى الشارع للرجل الذى لا يستطيع أحد أن يقلده . وفى بوسطن التى كانت فى عام ١٨٤٢ المركز الثقافى للولايات المتحدة كان الأمريكيون يتجمعون ويهتفون له هتافات عالية ويرسلون له الخطابات والأشعار، ويقيمون له الحفلات والاجتماعات وذلك لأن شعباً عظيماً قرر أن يكرم شاباً أنشأ نفسه بنفسه ، وكان ترحابهم يدل على شعورهم العظيم نحوه . كتب ديكنز لفورستر يقول : إننى أشعر بالفخر والسعادة من جراء ذلك الترحاب العظيم الذى يؤثر فى روحى ويسيطر على مجرى حياتى . وقد كان السبب فى هذا الترحاب كونه مصداقاً اجتماعياً وليس لكونه مؤلفاً شهيراً . ولقد أعلن دانيال وبتر أن ديكنز

عمل على اصلاح حال الفقراء فى انجلترا أكثر من السياسيين الذين كانوا يمثلونها فى البرلمان .

كان ديكنز لا يلقى إلا ترحابا ائنا سار، ولكنه صدم حين وقف يتحدث عن حقوق النشر الدرية فقبل بعداء . وقد كتب بعدئذ إلى ما كرىدى يقول « لما أكنه لك من محبة ... فاني لا أود لك بأن تقضى عاماً فى هذا الجانب من المحيط الأطلنطى ... حرية القول ! أين هى ؟ .. إن الأمريكان لا يحتملون سماع أخطائهم .. لو كنت ولدت هنا وكتبت كتنى فى هذه القارة لما صادفت تشجيعاً واقبالاً ولدت فقيراً مجهولاً وزيادة على ذلك كنت أحسب من الأشقياء » .

زار تشارلس وكتب كثيراً من الولايات المتحدة ولما وصلا إلى كندا قضيا هناك أسبوعاً بجوار مساقط نياجرا . وكانا يتمتعان بحرية شخصية لم يعهداها منذ ذهابهما إلى أمريكا ، وكان الهواء والخضرة تحلو لهما وقد جعلت هذه المناظر توحى للزواف ذكرى ماري هوجارث فقال « ماذا كنت أفعل لو كانت الفتاة العزيزة التى ترقد فى كنسال جرين لا تزال على قيد الحياة ترافقنا فى سفرنا هذا - ولكنها قد ترددت فى ذاكرتى مراراً - منذ أن زال وجهها الجميل عن ناظرى .. »

وأخيراً فى يونيو وصل ديكنز وزوجته إلى لندن وانما برؤية أطفالهما وجورجينا التى كانت تقيم معهما فى ذلك الوقت . وقد كان يخيل لـ كيت أن وجود جورجينا مع الأطفال يجعل تشارلس يكف عن أحلامه وحديثه عن ماري هوجارث ، تلك الأحلام التى كان يقصها عليها لمدة خمس سنوات . إن جورجينا قد بلغت نفس السن الذى كانت قد بلغت ماري حين كانت تقطن دوتى ستريت وكان وجه التشابه بين ماري وجورجينا كافياً لأن يظن

الإنسان أنها ماري. فديكنز كان دائم التفكير في ماري يعتبرها جزءاً من قلبه فقد أخذ بعد أسابيع من إقامته في جورجينا معهم يرى روح ماري تشرق عليه كل صباح وأخذ يسترجع الماضي في شخص شقيقته حتى أنه لم يجد فرقاً كبيراً بين الماضي والحاضر. هذا كان له تأثيره في حاضره ومستقبل حياته فانه وجد سلواه في جورجينا وفي الوقت نفسه آخر بعد مضي أعوام يتضايق من كبت إلى أن تم انفصاله عنها...

قضى شارلس ديكنز شهر أغسطس من نفس العام وهو يكتب «المذكرات الأمريكية» وقد أعجب ماريت مؤلف معاصر وصديق لديكنز بالكتاب وبالطريقة المسرحية التي عالج بها ديكنز مواضيع كتابه. وأما ثاكري فلم يستحسن الكتاب ورفض أن يكتب عنه تقريراً طلب منه وفي هذا السفر يصف المؤلف رحلته فصلاً فصلاً، وكل ما رآه من محاسن وأخطاء فهو كتاب مختص بزيارات إلى معاهد عامة يقارنها بالمعاهد التي تقابلها في إنجلترا. لقد أظهر إعجابه بتلك المعاهد، وأظهر أن الإحسان الذي كان يقوم به الشعب نفسه كان منفصلاً عن الإحسان الخاص، كما أنه يبين في كتابه أن الأطفال الذين يعيشون على ذلك الإحسان لا يرتدون إشارات ملابس خاصة موحدة كما يحدث في السجون مثلاً. وأنه إذا قارن هؤلاء بالأطفال المائمين لهم في إنجلترا، فإن شخصياتهم كانت تحمل طابعها الخاص. كما أنه كان يوجد ملاجيء للعتوهين، ومعاهد إصلاح وسجون، وملاجيء للصم والبكم ولكنه عندما اكتشف أن تجارة الرقيق كانت لا تزال قائمة غضب وثار لوجود هذه التجارة المردولة في بلد حر.

« مارتن شزلويت »

« مارتن شزلويت » رواية ظهرت عام ١٨٤٣ - ١٨٤٤ - تدور حوادثها حول مارتن شزلويت العجوز الثرى الذى يفقد ثقته فى عائلته ، اعتقاداً منه أنهم يطمعون فى ثروته ، فيتبنى ماري جراهام فتاة يتيمة فقدت أبويها فيقوم بتربيتها . يحب مارتن العشاب ماري ولكن جده لم يكن يأتمنه لظنه انه كان محباً لذاته فيرسله ليدرس عند قريب له يدعى المستر بيكسنيف ، معمارى له شخصية مزدوجة تسبب طرد مارتن من منزله . فيترك بدون نقود فيأخذه مارك توبلى معه الى أمريكا ليحرب حظه . فيسافر وهناك يضيع كل ما كان عنده من نقود ويتعرض للموت بالحى ولكنه ينجو من المرض ويرجع مارتن الى إنجلترا بعد أن يكون قد أصلح من نفسه . فى ذلك الوقت يكون جده وماري جراهام قد سكنا منزل بيكسنيف ووضع نفسه تحت تصرفه فيكتشف دناءه بيكسنيف الذى يحاول أن يجعل ماري تقبله زوجاً فيفشل فيديسه مارتن شزلويت وحين يرجع مارتن الصغير بزوجه بماري .

ومع الموضوع الاصلى قصة أخرى صغيرة وهى « أعمال جوناس شزلويت » ابن انتونى شزلويت أخ مارتن العجوز . وكان جوناس هذا ذو أخلاق شريرة لا يستطيع الانسان أن يقبلها . فانه يقتل أباه ويتزوج من ميرسى ابنة بيكسنيف ويعاملها معاملة قاسية ثم يقتل مدير شركة التأمين الذى خدعها واتخذ معها سياسة التهديد فيكتشف الجريمة فيتناول جرعة من السم فيموت والكتاب بجانب تصوير ديكنز الماهر يحتوى على كثير من الشخصيات المحبوبة .

نشر ديكنز هذه الرواية فى عشرين عدداً كما أنه أدخل أمريكا فى كتابه فقد اختار مارتن شزلويت وأرسله إلى أمريكا ، وبذلك يقدمنا الشخصيات

تمثل الطابع الأمريكى كما احتوت رواياته الأخرى على أشخاص يمثلون الطابع الانجليزى . لقد أعطى المؤلف مارتن حرية التعبير عن الأشياء التى رآها المؤلف ولم يستطع أن يفوه بها بصراحة ، وحين قرأ سدى سميت الكتاب كتب لديكنز يقول « لقد سررت بالعدد الأول من كتابك الجديد . إن بيكسنيف وبناته وبنش فى غاية السكال حقاً لقد سموت بوصفهم وصفاً لا يدانيك فيه كاتب أو أديب ! » وتلا زيارة ديكنز لأمرىكا زيارة إلى ايطاليا وفرنسا وغيرهما من البلاد فقد أصبح ديكنز يهرع لهذه البلاد رغبة فى الاستجمام من عناء العمل ، كما أنها كانت توسع دائرة فكره وقد كتب كتاباً وصف فيه رحلته إلى ايطاليا أسوة برحلته إلى أمريكا ...

« دوصى وابنه »

بعد عامين من كتابة مارتن شزلويت بدأ تشارلس ديكنز كتابة « دوصى وابنه » وهى كغيرها من روايات ديكنز لها موضوع ممتاز . فموضوع هذه الرواية يدور حول الكبرياء . ولمرور زمن كبير على كتاباته نسى ديكنز الكتابة وكان تقدمه بطيئاً فذكر فى إحدى رسائله مع فورستر « إنك لا تستطيع أن تتصور الصعوبة التى أجدها فى الكتابة الآن » إن كتاباته الكثيرة وكثرة مشاغله جعلته يفقد الخيال الذى بدأ به . فقد قال مرة « إننى احتفظ بقواى التى تبتكر وتخترع على شرط أنه يجب أن تسيطر على حياتى كلها ، وإنها كثيراً ما تملك على جميع مشاعرى وقواى وتملى شروطها وإحياناً تتركنى مدة طويلة وحيداً بدون إلهام » إن طريقة ديكنز فى الكتابة لم تتغير فانه كان يبدأ عمله بأن يجلس على مكتبه بين الساعة العاشرة إلى الساعة الثانية يكتب كثيراً أو قليلاً . ولمكنه لم يكن يترك مكتبه قبل الساعة الثانية .

عندما ألف ديكنز كتابه « دومي وابنه » كان في بلدة « روزمونت » في سويسرا حيث قضى ستة أشهر . وكان في باريس عندما كتب الفصل الذي يموت فيه بول بن دومي . وقد كتب الى مس كوتس يقول « إن بول قد مات » لقد مات بول يوم الجمعة في المساء حوالي الساعة العاشرة ولما لم يكن يأمل في أنه يستطيع النوم فقد قضى الليل في شوارع باريس الى أن جاء الصباح . وحين كتب هنري هالام الى مسز بروكفيلد قال لها في خطابه « إن كل انسان يزعم أن موت بول هو أجهل شيء كتب الى الآن ، وقد قال شارلي أحد أبناء ديكنز إنى متأكد بأن الأطفال الذين رزق بهم أبى من خياله كانوا حقيقين يمتازون عن أولاده بأنهم أكثر حقيقة أحياناً عما كنا نحن عليه » .

إن رواية « دومي وابنه » التي ظهرت في عام ١٨٤٧-١٨٤٨ هي رواية يدور موضوعها حول أعمال إحدى الشركات . فان المستر دومي ، الرجل الثرى والرئيس المتكبر لشركة الملاحة التابعة لدومي وابنه يرزق بابن في أول الرواية ولكن زوجه تموت ويضع الأب كل آماله في ابنه الذى كان ضعيف البنية ولكن ذكاه كان خارقاً للعادة إذ كان أكبر من عقلية طفل . يرسل الابن الى مدرسة يديرها الدكتور بلينو والذى تسبب له الموت من جراء النظام الشديد المتبع هناك . وفي الوقت نفسه يحب دومي ابنه فيهمل ابنته فلورنس وبعد موت أخيها تزداد شقة التفريق الذى بينها وبين أبيها ثم يحدثنا ديكنز عن والتر جاي وهو شاب في خدمة دومي له أخلاق سيئة وقلب طيب فيقع في حب فلورنس ويسكنه يرسل الى جزر الهند الغربية بوساطة دومي الذى لا يوافق على صداقتهما . وفي الطريق تغرق الباخرة التى كان عليها ويعتقد الجميع أنه مات غرقاً . بعد ذلك يتزوج دومي مرة

أخرى من أرملة شابة اسمها ادith جرينجر ولكن معاملته الصعبة تدعوها إلى مصادقة كاركر مدير أعمال زوجها الشرير ويهرب الاثنان إلى فرنسا. يقوم دومى بمطاردتهما فيتقابل مع كاركر فى محطة من محطات السكك الحديدية فيقع كاركر تحت عجلات القطار ويقضى عليه . إن الشركة تفشل ويفقد دومى ثروته وابنه وزوجته . وأما ابنته فتزوج والتر جاى الذى كان لا يزال على قيد الحياة . بعد ذلك يفقد دومى كبرياه ويعيش بمفرده إلى أن ترجع إليه فلورنس . ومن ضمن الشخصيات المعروفة فى السكتاب سولومون جلز وصديقه كيتل وجو باجستوك الماجور المتقاعد وفينكس .

« دافيد كوبر فيلد »

رواية « دافيد كوبر فيلد » عبارة عن تقديم كتابة ديكنز . إن عقليته كانت فى طريق التغيير لأنه كان يطمح فى الفن والواقع . كما اراد أن يظهر مقدرته على التأليف كغيره من السكتاب واراد أن يبرهن على مقدرته بسرد الوقائع عارية . لقد رغب ديكنز أشياء كثيرة ولكنها كانت معقولة وقدم ضحى بكل شئ من أجل الحقيقة حتى يجدها . كانت فكرة ديكنز فى كتابة دافيد كوبر فيلد أن يسرد تاريخاً حقيقياً لحياته ولكن على طريقته هو وليس على طريقة غيره . لقد ظل طول حياته يجمع الوقائع لكي يكتب تاريخ حياته كرواية وبدون أن تظهر للقراء بأنها قصة حياة مؤلفها . لذا نرى أن مزاج « دافيد كوبر فيلد » العظمى هى انها تسرد الوقائع الحقيقية ولكن بحماس للحق . إنه يصف الوقائع ولكن بقليل من المبالغة ويختلف اشخاص هذه الرواية بأنهم اشخاص حقيقيون . إننا حين نقرأ عن طفولة « دافيد كوبر فيلد » نشعر أنها جزء من طفولتنا كما أن شهاب ديكنز

حقيقي من الناحية السيكولوجية ولكن روايته ايضاً تحتوى على شخصيتي
المستتر والمسر ميكوبر وهما مزيج من الواقع والخيال ولكن بالرغم من
ذلك فانا نشعر اننا عرفناهم طول حياتنا .

حين بدأ ديكنز في كتابة دومي وابنه فانه وجد نفسه أمام مشكلة وهي
عدم استطاعته الكتابة . رغم أنه كان يستطيع أن يخلق الشخصيات ويبتكر
الموضوعات ولكنه لم يستطيع أن يجعل أبطاله يقومون بادوارهم الا اذا
أخذهم معه الى لندن . . قد كتب ديكنز يقول : إن يوماً في لندن يستطيع
نقري في وحيث ابدأ في أى كتاب ولكن حين قال المؤلف ذلك نسي أن في
ذلك الوقت بدأت صحته تعتل .

في كتابه دافيد كوبر فيلد يقول ديكنز « سواء أصبح أنا بطل حياتي
أو يحتل هذه المكانة شخص آخر فان هذه الصفحات ستظهر ذلك » إن كل
رجل كاتب له حيشية وجب أن يكتب على الاقل كتاباً واحداً . فكتب
ديكنز تاريخ حياته وقد حاول أن يكتب ذلك قبلها بعامين ولكن لم يزد
المشروع عن بعض المقتطفات التي توجد الآن في كتاب حياة شارلس ديكنز
لفورستر . لقد اراد ديكنز أن يتخلص من ذكريات طفولة مهملة لم يلق فيها
عناية من أى شخص وذلك بأن يعبر عنها على صفحات كتابه . إن الانسان
حين يكتب عن ألمه فانه يظهر له على الورق غير جدير بأن يشغل باله .
ولكن ألم ديكنز كان ألماً حقيقياً فقد مر عليه زمن كانت آلامه قد تركت
اثراً شديداً في نفسه حتى انه حين كان يستعيد تلك الحوادث لكتابتها كان
يشعر بالالم وكأنه حديث . لم تكن لديه الشجاعة الكافية لأن يذهب الى
مصنع الورنيش حيث كان يعمل كصبي وذلك لأنه كان يذكره بالوحدة
الشديدة والحسرة التي شعر بها حينئذاك عندما أهمله والده . ولقد حاول

أن يسرد هذه الوقائع في كتابه بأمانة . وكان يستطيع أن يقول الحق ولكنه لم يستطع أن يكتب غيظه وشعوره المكبوتين . لقد أعطى ما كتبه عن طفولته الى فورستر لكي يستخدمها في كتابه ولقد قرأ بعض ما كتب على كاترين زوجته التي حينما استمعت الى تلك المأساة ، مأساة الطفولة المعبدة ، فانها لم تتأثر لآله بقدر ما تأثرت بما قاله عن والديه وذلك لأنها كانت تعلم أنه من عائلة فقيرة .

ظهرت أعداد الكتاب بين عامي ١٨٤٩ - ١٨٥٠ وقد قال ديكنز عنها « إنه كتابي المفضل دون غيره من الكتب التي كتبتها » وذلك لأنه عبر فيها عن كل ما كان يدور في خلده .

ولد دافيد كوبر فيلد في سفوراك بعد موت أبيه . وكانت أمه سيدة ضعيفة رقيقة الطبع . تزوج مرة أخرى ويقوم هو بمساعدة أخته على تعذيب السيدة واستعمال الشدة في معاملتها وفي تربية ابنها بما له أثر في موتها المبكر . بعد موت أمه يرسل دافيد الى المدرسة حيث يقوم الناظر بمعاملتها معاملة قاسية من غير مبرر ولكنه يصادق ستيرفورت وتراولز . يذهب دافيد الى لندن لكي يعمل وهناك يعيش عيشة فقيرة بائسة يتخللها المرح من اتصاله بعائلة المستر ميكوبر . يهرب دافيد من لندن ويذهب الى خالته بتسي تروتوود وهي سيدة عجوز شاذة ويطلب منها المساعدة . ترحب به بتسي وتدعوه للسكنى معها حيث يقابل المستر ديك المجنون . يذهب كوبر فيلد الى كاتربري لكي يتم تعليمه وحيث يعيش في منزل محامي خالته وهناك تقوم بنت المحامي المستر ديك فيلد بالتأثير على دافيد تأثيرا بالغاً ثم بعد ذلك يعمل في دور المحاماة ويقوم في ذلك الوقت بالاتصال بعائلة مريته كلارا بيجوتي ويقدم لها ستيرفورت . هذه العائلة عبارة عن المستر بيجوتي صائد

الاسماك وهام واملى الصغيرة التى كانت على وشك أن تتزوج من هام ولكن ستيرفورت يشدد على املى ان تهرب معه وتحدث مأساة وهى غرق ستيرفورت وموت هام حين يحاول أن يخلصه .

فى ذلك الوقت يتزوج كوبر فيلد دورا وهى فتاة جميلة طائشة وينجح فى أن يصبح مؤلفاً شهيراً . تموت دورا بعد أعوام قلائل من زواجها ثم يرى أنه كان خاطئاً فى عدم تقديره جوهرة مثل اجنيز بنت ويكفيلد . كان المستر ويكفيلد يستخدم كاتباً شريراً اسمه برايا هب فيتسلط عليه ويكاد يقضى على ثروته تحت ستار الخداع ولكن ميكوبر يكتشف سرقة وتزويره وذلك بمساعدة المستر كرا ديلز المحامى . يحكم القضاء على برايا بالسجن المؤبد وأما دافيد فيتزوج من أجنيز . وآخر منظر فى الكتاب هو سفر المستر بيجوتى مع عائلته الى استراليا لبداية حياة جديدة والامل يشرق على وجوه الجميع ...